إشكالية وجود المُعرّب في القرآن
بين اللغويين والأصوليين

الدكتور: زهير غازي زاهد
الدكتور: جاسم فريح دايخ
الجامعة الإسلامية–النجف– العراق

الملخص:

تُعدُّ قضية وجود المعرب في القرآن واحدة من الإشكاليات المطروحة في تراثنا الإسلامي , إذ خلفت تراثاً هائلاً من أقوال اللغويين والأصوليين وكانت إسهاماتهم متميزة في دراسة قضية المعرب في القرآن من جوانبها المختلفة , وتوصلت الدراسة إلى أن هنالك مبالغات في كتابات العلماء في إلحاق ألفاظ عربية أصيلة بمصادر سامية أخرى أوغيرها, وإنَّ معرفة لغوبينا باللغات واللهجات القديمة (الساميّة) كانت ناقصة محدودة ما سبب نقصاً في المعجمات العربية , فما كان معروفاً من هذه اللغات اقتصر على العبرانية والارامية والحبشية ,ولم تكن تلك اللغات الأقدم منها كالبابلية والآشورية (الأكدية) والكنعانية , قد كشفت عنها النقاب عما خلفته من مدونات لغوية إلا في القرن التاسع عشر بعد معرفة قراءة الخطوط القديمة .واحتوت الدراسة على نقض كثير من الآراء والأقوال التي جاء بها اللغويون والأصوليون.

Abstract:

The issue of the presence expressed in the Qur'an and one of the problems raised in the Islamic heritage, as it left a tremendous legacy of the sayings of linguists and fundamentalists, and the distinct contributions in the study expressed the issue in the Quran of different aspects, and the study found that there are exaggerations in the writings of scientists in appending the words of an Arab authentic other Semitic sources or other, and that knowledge of Goyena languages and ancient dialects (High) were incomplete limited what caused a shortage in the Arab Almagamat, what was known of these languages was limited to the Hebrew, Aramaic and Abyssinian, was not the languages of the older ones Kalpabelih and Assyrian (Akkadian) and the Canaanite, It has unveiled what is revealed by the legacy of linguistic codes only in the nineteenth century after reading knowledge of old lines .

توطئة

الحمد لله ربَّ العالمين , والصلاة والسلام على أشرف المرسلين , سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين , وعلى آله الطاهرين , وصحبه المنتجبين , والتابعين , ومن تبع هداهم واقتفى أثرهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين والعاقبة للمتقين .

وبعد: فإن كان المنطق الصوري الأرسطي العلامة الفكرية المميزة للحضارة اليونانية ,فإن علم أصول الفقه هو أحد العلامات الفكرية للحضارة الإسلامية , وأنّه إبداع إسلامي أصيل لم يستعره المسلمون من بيئات أخرى , وهو يتصف بدقة مباحثه , وصرامة قواعده ؛ لأنّ الاستدلال على الأحكام مشروط بوصف الدقة والضبط , إذ سبر العلماء أغوار هذا العلم وأصبح المنطلق لفهم التراث الإسلامي , سواء على مستوى بنية هذا التراث الإسلامي ومكوناته , أم على مستوى نموه وتطوره (1).

هذه المهام التي اضطلع بها علم الأصول جعلته يحتل مكانة مرموقة بين العلوم الإسلامية وتظهر مكامن الأهمية في كونه الموصل إلى معرفة الحلال والحرام في الحوادث والنوازل المتجددة التي لا نهاية لها إلى قيام الساعة فهو (عماد الاجتهاد وأساسه فيمكن بواسطته نصب الأدلة السمعية على مدلولاتها , ومعرفة كيفية استنباط الأحكام الشرعية منها)(2).

وقد بات عند القدامى والمحدثين أنَّ علم أصول الفقه يحتاج في استنباط قواعده الكليّة والنّظر في الفروع وردّها , إلى الكليّات , إلى علوم أخرى , مثلَّت ركيزة في فهم النوازل وملابساتها, ومن أهم هذه العلوم وأسبقها زمناً علوم اللغة العربية ؛ لأنَّها العلوم التي أسهمت في فهم النص القرآني , وفي دلالات الألفاظ على المعاني , وهو ما دعا العلماء إلى اشتراط المهارة في هذه العلوم , حتى يتوصّل المُجتهد إلى فهم الأحكام الشرعية على الوجه الصحيح , إذ أصبحت معرفة اللغة المعيار في صحة ملكة الاجتهاد , وفي هذا المعنى يقول أبو البقاء ابن يعيش (ت 643هـ): (أصول الفقه مرتبط بمعرفة العربية ؛ لأنّه يبتني على معرفة الكتاب والسُنة , ولا يُعرفُ معناهما إلا بمعرفة العربية , ولذلك كانت شرطاً في صحة الاجتهاد)(3).

الأصوليون يرون أنَّ أصول الفقه منطق الفقه, وإذا كان المنطق مجموعة القوانين التي تضبط عقل المفكر وتعصمه من الخطأ, فإن أصول الفقه هي مجموعة القوانين التي تضبط عقل الفقيه المستنبط وتعصمه من الخطأ في عملية الاستنباط.

إنّ الأصوليين أولوا عنايتهم واهتمامهم لمباحث اللغة , ولم يتوقف اهتمامهم عند الإفادة من دراسات علمائها , وربّما اعتنوا في فنّهم بما أغفله أئمة اللغة العربية , (حتى خالفوهم في بعض الأحيان , وكان يصلون إلى مستوى من التعمّق في أسرارها ومراميها ودقائقها لم يكن متحققاً لبعض النحويين واللغويين)(4).

ويؤكدّ تاج الدين السُبكي:(أنَّ الأصوليين دققوا في فهم أشياء من كلام العرب لم يصل إليها النحاة ولا اللغويون, فإنَّ كلام العرب متسع جداً والنّظر فيه متشعبٌ)(5).

مشكلة البحث

لم ينل موضوع من الموضوعات المتعلقة بفقه اللغة من الاهتمام الذي خلَّف وراءه تراثاً هائلاً من أقوال المفسرين واللغويين والأصوليين ,مثلما نال موضوع قضية المعرّب في القرآن ,كونه موضوعاً مثيراً للجدل, ومن بقائه غير محسوم بيقين علمي ,وقد كان للفكر الأصولي إسهامات متميزة على مستوى إبداء الآراء وعلى مستوى توجيه بعض الآراء.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في :

- أنّه يجمع شتات الآراء المنسوبة للأصوليين واللغويين في قضية وجود المُعرّب في القرآن.
- إبراز جهود الأصوليين وإسهامهم الواضح والمتميز في دراسة قضية المعرّب في القرآن من جوانبها المختلفة.
- إبداء موقف من هذا الخلاف الدائر في قضية وجود المعرب في القرآن الكريم.

الدراسات السابقة

- من تراثنا اللغوي القديم ما يُسمى في العربية بالدَّخيل، طه باقر، طُبع سنة (1980م).
- موسوعة حلب المقارنة، خير الدين الأسدي، طُبع سنة(1981م).
- أثر الدَّخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، د. مسعود بوبو ،طُبع سنة(1982م).
- حركة التعريب في العراق، د. أحمد مطلوب، طُبع سنة(1983م).

- مُعجم المعرَّبات الفارسية في اللغة العربية، د. محمد التونجي، طُبع سنة(1988م).
- التعريب في التُراث اللُّغوي مقاييسه وعلاماتُه، د. عبد العال سالم مكرم، طُبع (1989م).
- المعرَّب في اللغة، فارس السيد حسن السلطاني، رسالة ماجستير (1996م).
- هل في القرآن أعجمي؟ د. علي خشيم، طُبع سنة (1997م).
- المعرَّب في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية دلالية، د. محمد علي بلاسي، طُبع سنة(2001م).
- المعربَّ والدَّخيل في المعاجم العربية، جُهينة نصر علي، طُبع سنة (2001م).
- المعجم الذهبي في الدَّخيل على العربي، د. محمد التونجي، طُبع سنة (2004م).
- المعجم المفصَّل في المعرَّب والدَّخيل، د.سعدي ضناوي، طبع سنة (2004م).
- المعرَّب والدَّخيل في اللغة العربية وآدابها، د. محمد التونجي، طُبع سنة (2005م).
- المعرَّب الصوتي في القرآن الكريم، دراسة ومعجم، رسالة ماجستير غير منشورة، إدريس سليمان مصطفى،2006م.

تعريف المُعرّب عند اللغويين

من الإشارات الأولى لمفهوم المُعرّب ما أشار سيبويه إليه في كتابه حين قال: (اعلمْ أنّهم مما يغيّرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة , فربما ألحقوه ببناء كلامهم , وربما لم يلحقوه)(6).و(سمّاه سيبويه وغيره إعراباً ـ وهو إمام العربية ـ فيُقال حينئذٍ "مُعرَّب" و"مُعرَبٌ)(7).ويقفنا هذا على أمرين لافتين للنّظر ,أحدهما: عدم وجود فرق بين المعرّب والمُعرَب عند سيبويه؛ ويؤيّد ذلك قول أبي منصور الأزهري (ت 370هـ)(الإعراب والتعريب معناهما واحد)(8) أما الأمر الآخر : فسيبويه مثلاً تحدّث في عدد من الألفاظ المعربة من خلال حديثه عن أبنية الألفاظ العربية , ولم يكن يقصد سيبويه توضيح المفهوم .

ولعلَّ أول من أورد تعريفاً أقرب للمعنى الاصطلاحي أبو نصر الجوهري(ت398هـ) حين قال :(تعريب الاسم الأعجمي: أن تتفّوه به العرب على مِنهاجها , تقول : عرّبته العربُ , وأعربه أيضاً)(9).

وقال أبو منصور الجواليقي(ت539هـ):(ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي)(10), وذهب إلى مثل هذا الشهاب الخفاجي فقال: (اعلم أنَّ التعريب نقل اللفظ من الأعجمية إلى العربية)(11). وقد عرّفه السيوطي(ت911هـ) بقوله:(هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لغتها))(12) ويُلحظ في هذه التعريفات أنَّ معيار التعريب هو الاستعمال, وأنْ تكون المعاني, لا الألفاظ فحسب ,من لغة أخرى .وهو قيدٌ مهمٌّ جداً في معرفة المعرّب , والدخيل , وهو يرادف المعرّب عند العلماء.

وقال محمد علي التهانوي (ت1158هـ):(المعرَّب عند علماء العربية لفظ وضعه غير العرب لمعنى استعمله العرب بناء على ذلك الوضع)(13).

وعلى ذلك يمكن القول إنَّ هنالك اتّفاق بين علماء العربية على أنَّ ما دخل اللغة العربية من اللغات أخرى يعدُّ معرَّباً , وخصصه الجوهري بما تكلّمت به العرب من الأعجمي على نهجها وأسلوبها, كما يفيد كلام ابن كمال باشا (ت944هـ) عن التّعريب بأنّه: (استعمال الكلام الأعجمي على منهاج العرب . يقول :إنَّ العرب كما تستعمل الكلمة الأعجمية وتجعلها جزءاً من الكلام بعد التعريب كذلك تستعملها وتجعلها جزءاً منه قبله)(14).

تعريف المُعرّب عند الأصوليين

اعتاد الأصوليون على أن يبينوا مفهوم أي مصطلح يذكرونه قبل ذكر أحكامه ؛ لأنَّ الحكم على شيء فرعٌ من تصوره , والتصور يكون بالتعريف . فقد عرّف تاج الدين السُّبكي المعرّب بقوله: (لفظ غير علم استعمله العرب في معنى وُضع له من غير لغتهم)(15), وإنّما وضع السُّبكي قيد(العلم) ليخرج الأعلام كإبراهيم وإسماعيل , ولدفع إشكال مفاده أنَّ هذه الأسماء من الصعوبة بمكان إثبات عربيتها , فكان وضعه هذا القيد ليتساوق مع مذهبه القائل بعدم ورود المعرّب في القرآن.

ومن الأدلة التي ساقها الأصوليون المؤمنون بهذا المسلك أن الأعلام بحسب وضعها العلمي ليس مما يُنسب إلى لغة دون لغة , إذ المقصود منها تعيينُ المسمّى مطلقاً فلم توضع بأصل اللغة بل وضعت بأوضاع متجددة , والكلام في الأوضاع أصلية (16), ولكن السُّبكي

الذي شرح به منهاج البيضاوي(ت 685هـ) أدخله في المعرّب أي فيسمى به فيكون السُّبكي ممن قال بوقوع العلم الأعجمي في القرآن كما قال جلال الدّين المحليُّ (ت864هـ) (17), إذن فقد اتفقوا على أن العلم الأعجمي مستعمل وواقع في القرآن الكريم (18), ولكن السُّبكي في جمع الجوامع لم يدخله في مفهوم المعرّب .والذي يبدو أنّه استقرّ عليه بعد أن اختار خلافه في الإبهاج في شرح المنهاج (19).

أمّا الزركشيُّ فقد أدخل العلم في المعرّب إذ قال: (المعرّب بتشديد الراء وفتحها ما أصله أعجمي ثم عُرّب أي استعمله العرب على نحو استعمالها لكلامها)(20).وكذلك أدخله الشريف الجرجاني (ت 816هـ) إذ قال في تعريفه: (المعرّب لفظٌ وضعه غير العرب ثم استعملته العرب بناءً على هذا الوضع)(21). وهو عند ابن بدران الدمشقي:(وهو ما أصله أعجمي ثم عُرِّب أي استعملته العرب على نحو استعمالها لكلامها)(22).

المعُرّب بين الوقوع وعدمه في القرآن

لعلَّ الجدل الذي أثير حول فكرتي (عدم الوقوع المعرب وإثباته) يمثل الدائرتين الكبيرتين اللتين توزعت بينهما أراء الأصوليين واللغويين والمفسرين ويمكن عرض الآراء على النحو الآتي:

الرأي الأول:

عدم وقوع المعرَّب في القرآن الكريم

انكر الكثير من العلماء وقوع المعرّب في القرآن ,قال جلال الديّن السيوطي:(اختلف الأئمة في وقوع المعرب في القرآن , فالأكثرون ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه)(23), فالشافعي (ت204هـ) صاحب أول سفرٍ أصوليٍّ وهو (الرسالة) شدد النّكير على من يقول بوقوعه ,إذ قال: (وقد تكلم في العلم مَنْ لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساكُ أولى به وأقرب من السلامة له إن شاء الله , فقال منهم قائل : إنَّ في القرآن عربياً وأعجمياً, والقرآنُ يدلُّ على أنّه ليس في كتاب الله شيءٌ إلا بلسان العرب)(24), وانتصر أبو عبيدة لهذا الرأي بالقول: (من زعم أنَّ في القرآن لساناً سوى

العربية فقد أعظم على الله القول)(25) ونصَّ ابن جرير الطبري على عدم وقوع المعرّب بقوله: (إنّه جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم)(26).وهو مذهب أبي حامد الأسفراييني الأصولي (27), والباقلاني (28), بل هو مذهب أهل العلم من الأصوليين والمحدثين(29).واستدلّوا بالأدلة الآتية:

الدليل الأول:

إنّ في القرآن الكريم آيات كثيرة تقطع بأنّه عربي ، والقول بأن فيه من لغات العجم ينافي ذلك.

ومن هذه الآيات :قوله تعالى((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) [يوسف/2] وقوله تعالى:((وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ))[الرعد/37] وقوله تعالى: ((لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)[النحل/103] وقوله تعالى:((بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) [الشعراء/195] وقوله تعالى: ((قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ))[الزمر/28] وقوله تعالى:((وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ)[فصلت/44] وقوله تعالى:((وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ))[الشورى/7] وقوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[الزخرف/3].

وعدَّ الشيخ الطوسي نسبة العُجمة إلى القرآن تناقضاً , والتناقض على الله محال ؛ لأنَّ التناقض باطل , والقرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , وفي هذا قال :

(أنَّه لا يجوز أن يكون في كلام الله وكلام نبيه تناقض وتضاد وقد قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ), وقال :(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ), ..., فكيف يجوز أن يصفه بأنّه عربي مبين , وإنّه بلسان قومه , وأنّه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟)(30).

ويمكن أن يُردَّ على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: ذكر أبو حامد الغزالي(ت505هـ) في تعقبّه لكلام الباقلاني(ت403هـ): (إلا أنَّ هذا غير مرضيّ عندنا, فاشتمال القرآن على كلمتين أو ثلاث أصلها أعجمي وقد استعملها العرب ووقعت في ألسنتهم لا يخرج عن كونه عربياً)(31), وانتصر لقول الغزالي من الأصوليين ابن الحاجب والأسنوي والشوكاني (32).

الوجه الثاني: أنَّ هذه الألفاظ القليلة بغير العربية لا تخرج القرآن عن كونه عربيا ، فالقصيدة الفارسية لا تخرج عن فارسيتها بلفظة عربية توجد فيها (33).

الدليل الثاني: حكي عن بعض الأصوليين بأنَّ تلقي استعمال اللفظة غير العربية منافياً مع فصاحة القرآن , لأنَّ اللفظ الأعجمي تنقصه الفصاحة , لعدم جريانها على النسق العربي في الهيئات والمواد(34).

وكان هذا الدليل مُعوَّل الفخر الرازي الاصولي حين يقول : (القرآن أنّما كان معجزاً لما فيه من الفصاحة العائدة إلى اللفظ وكأنّه قيل هَب أنَّه يتعلم المعاني من ذلك الأعجمي ألا أنَّ القرآن إنّما كان مُعْجزاً لما في ألفاظه من الفصاحة)(35).

ويمكن الردُّ على هذا الدّليل من أوجه:

الوجه الأول: وهذا لا ضير فيه مطلقا، ولا يقدح في عربية القرآن الكريم ؛ إذ إنّ هذه الألفاظ القليلة لا تخرج القرآن الكريم عن عربيته. فهل تُغيّر قطرة ماء مالحة عذوبة نهر جار ؟ !!

بل إنّ الله (جلت حكمته) خاطب القوم بلغتهم التي يتحدثونها ويفهمونها ، سواء أكانت عربية أصالة أو تحويلاً. كما أن هذا دليل اتساع آفاق هذه اللغة العظيمة ؛ إذ استطاع أصحابها أن يُطوِّعوا هذه الألفاظ التي تنحدر هي والعربية من أصل واحد ، ويخضعوها لمِنهاجهم ، ويجروا عليها قوانين لغتهم ، حتى صارت تجاري ألفاظها في الفصاحة والبلاغة.

الوجه الثاني: أن هذه الكلمات عُرِّبت ،وجرت عليها قوانين العربية، وطوَّعتها العربية لمنهجها في أصواتها وبنيتها؛ فصارت ضمن مفرداتها التي يستعملها العرب ،وذلك قبل نزول القرآن بسنوات طويلة.

الوجه الثالث: إنَّ بعض المسميات لم يكن لها لفظ بديل في اللغة العربية كما في لفظ (استبرق) الذي يعني الديباج الثخين كما حكاه السيوطي عن بعضهم(36).و لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يأتوا بلفظة تقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا.

مما جَعَلَ أبو جعفر الطوسي(ت460هـ) يعتذر لاستعمال بعض الألفاظ التي رآها دون فصاحة القرآن بإيرادها على وجه الحكاية عن آخرين , وذلك في كلامه على قوله تعالى((مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا))[البقرة 61]: (وإنّما ذكر الله تعالى هذه الألفاظ وإن لم تكن لائقة بفصاحة القرآن على وجه الحكاية عنهم). ولعلَّ مرجعه إلى عدم وجود بديل عنها , إذ لا يتقيد القرآن الكريم في مقام الحكاية بإيراد لفظ المحكي)(37).

الدليل الثالث: إنَّ وقوع الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم هو من باب التوارد والتوافق بين اللغات ,قال أبو جعفر الطبري : (ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن الكريم أنها بالفارسية والحبشية والنبطية ونحو ذلك ، إنما اتفق فيها توارد اللغات ،فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد)(38).

وقد أفرد الطبري في تفسيره مبحثا حول هذه المسألة تحت عنوان : القول في الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم(39).

وأورد الأصولي الزركشيُّ ما يدلُّ عن وضوح رأيه بأنَّ ما ورد من ألفاظ يُظنّ أنها معجمة هي من قبيلُ توافق اللغات , ومن ذلك قوله: (ذهب القاضي إلى أنّه لا يوجد فيه من الالفاظ المعربة مما أتفق فيه اللغات , ويحثُّ القاضي عن أصول أوزان كلام العرب وردَّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية)(40).

ومال إلى هذ الرأي الأصولي محمد بن علي الشوكاني(1255ه) (41).

ويردُّ عليه من وجوه:

الوجه الأول :هذا تحكُّم لا دليل عليه .

الوجه الثاني: هل كان الذي قال ذلك متقناً للغات الأخرى حتى يُعتمد قوله ؟

الوجه الثالث : تردُّ هذه الدعوى بما أُثر عن أبي بكر الأنباري(328ه): (وقال بعض المفسرين:(صُرْهُنَّ)معناه :قطِّعْ أجنحتهن. وأصله بالنبطية(صريه) ويحكى هذا عن مقاتل ، فإن كان أُثِرَ هذا عن أحد الأئمة فإنه مما اتفقت فيه لغة العرب ولغة النبط ؛ لأن الله (عز وجل) لا يخاطب العرب بلغة العجم ؛ إذ بيَّن ذلك في قوله : (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)(42).

الوجه الرابع: ردَّ عضد الإيجي(ت756ه) هذا المقتضى ب(مما اتفق فيه اللغتان كالصابون والتنور بعيد لندره مثله .والاحتمالات البعيدة لا تدفع الظهور ولا تقدح في الظواهر)(43).ومراد قوله ان ما اتفقت فيه اللغتان لا تدفع ظهور خلافها مثل اختلاف اللغتين فيها ولا تقدح في الظواهر , وإنّما يدفع القطع ويقدح في الأدلة القاطعة والمدعى في هذا المقام الظهور لا القطع , وهو رأيٌ متقّبل .

الدليل الرابع : كل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جدا ، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجِلَّة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح . قال الشافعي :(لا يحيطُ باللغةِ إلا نبيٌّ)(44).

وهذا ما أكدّه ابن تيمية حين قال إنّ: (المشكاة والاستبرق والقسطاس هي أسماء عربية يجهلها بعض العرب ويعرفها البعض, وبه قال عامة الفقهاء والمتكلمين)(45).

الدليل الخامس : ما ذكره السمعاني الأصوليُّ الشافعي من دليلٍ مفاده من أنَّ القرآن : (لو كان فيه من غير لسان العرب لأختلَّ التحدي ولم يثبت الإعجاز ؛ لأنّه يكون تطريقاً في أن يقولوا: إنَّ القرآن الذي جاء به يشتمل على لسان العرب وغير لسان العرب , ونحن لا نعرف الّا لسان العرب به يجزئ من قبل هذا القول إلى وهذا من الإعجاز)(46).

ويمكن القول إنَّ السّمعاني اتّخذ قوله تعالى:(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي)[فصلت/44]),تُكأةً استند إليها, ومُعوَّل في اختياره, وهو مردود من السيد ضياء الدين الأعرج الأصولي الإمامي حين يبين معنى الآية بالقول:(أأعجمي وعربي, معناه : أكتاب أعجمي ونبي عربي؟ وليس معناه : أبعضه أعجمي وبعضه عربي؟ بحيث يكون قطعه الله اعتراضهم المذكور بجعله عربياً بكلّيته)(47).

الرأي الثاني: المثبتون لوقوع المعرّب في القرآن:

عُرف هذا الرأيُ برأي الفقهاء والأصوليين ،ومنهم :ابن عباس ،ومجاهد وعكرمة ،وسعيد بن جبير، وعطاء ،ووهب بن منبه، والجويني الأصولي، وغيرهم(48).

وحُجتهم:

الدليل الأول : استدلَّ ابن الحاجب على وقوع المعرّب في القرآن إجماع أهل العربية (على أنَّ نحو إبراهيم منع من الصرف للعجمة والتعريف)(49).

ويُورد على هذا الدليل ايرادات:

الإيراد الأول: نبَّه عليه ابن السُّبكي في كتابه الإبهاج بقوله :(وذلك لا يجديه شيئاً إذا كان محل الخلاف مقصوراً على أسماء الأجناس غير شامل للأعلام)(50).

الإيراد الثاني: ذهب بعضهم أنَّ الأسماء الأعجمية الواردة في القرآن الكريم عربية فقالوا في تسمية إبراهيم أنّه برئ من الدنيا وهمَّ في الآخرة(51), وفي تسميته إدريس لكثرة دراسته الكتب (52)....الخ .

الإيراد الثالث: العلّة التي اشترطها النحاة لمنع الصرف غير مُسلَّم بها لشدة ضعفها , وفي ذلك يقول السهيلي (581هـ) : (وهذا الباب لو قصَّروه على السماع ولم يعللوه بأكثر من النقل عن العرب لا تنفع بنقلهم , ولم يكثر الحشو في كلامهم , ولما تضاحك أهل العلوم من فساد تعليلهم حتى ضَربوا المثل بهم فقالوا : (أضعف من حجة نحوي)(53).

الدليل الثاني: إنَّ القرآن الكريم حوى علوم الأولين والآخرين ؛ فلابدَّ من وقوع الإشارة فيه إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء؛ فاختير له من كلِّ لغة أعذبها وأخفَّها وأكثرها استعمالا ، وإن كان أصله بلغة العرب(54).

والظاهر أنَّ مُعوَّل الذين تمسّكوا بهذا الدليل ثلاثة مقتضيات:

المقتضى الأول : الاعتقاد بورود الأثر به عن بعض التابعين , قال السيوطي(ت 911هـ) : (وأقوى ما رأيته الوقوع _ وهو اختياري _ ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح بسند صحيح عن أبي مسيرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان . وروى مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه)(55).

المقتضى الثاني: توهم دلالة النصوص القرآنية والنبوية عليه ..

أما القرآنية فهو ما وَرَدَ فيه من إرسال كلِّ نبي بلسان قومه , والقرآن منزل لجميع الأقوام , فلا بدَّ أن يكون فيه من كل لغة , قال السيوطي إنَّ(النبي (صلى الله عليه وآله) مرسل إلى كل أمة , وقد قال : ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)) فلا بدَّ وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم , وإن كان أصله بلغة قومه هو)(56).

وأمَّا النبوية فما وَرَدَ من أنَّ في القرآن (نبأ كل شيء) فلا بدَّ أن يكون فيه من أنباء سائر اللغات.

المقتضى الثالث: توقع أنَّ ذلك كمال للقرآن , وكل كمال للقرآن فهو مُتصفٌ به لا محالة , وإلا كان نقصاً فيه. وهذا نظير الاستدلال المذكور في الكلام عن ثبوت كل كمال لذات الباري تعالى شأنه(57).

ولعلَّ من أسباب تبني رأي احتواء القرآن على كل لسان محورين :

المحور الأول: دواعي العصبية , بمعنى أنَّ كل قوم كانوا يرغبون في احتواء القرآن على شيء من لغتهم لينالوا بذلك فخراً واعتزازاً .

المحور الثاني: توثيق عرى الإسلام وبين الأقوام غير العربية , فإن ذكر شيء من لغتهم في القرآن قد يطرح من قبلهم ليكونَ فخراً واعتزازاً بها, كما قد يكون طرح ذلك من قبل علماء العرب ليكونَ مُوجباً لتقريبهم وتأليف قلوبهم إلى الإسلام.

الدليل الثالث: ذكر شمس الدين الاصفهاني أنَّه(ثبت بالرواية عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء في إثباتهم كلمات كثيرة بلغات العجم في القرآن الكريم, كاستبرق فارسية للديباج الغليظ وقسطاس رومية للميزان ومشكاة هندية للكوة التي لا تنفذ)(58).

وأجاب عبد الرحيم الإسنوي(772هـ) بأنَّ هذه الألفاظ ونحوها مما اتّفق فيها لغة العرب ولغة غيرهم أي وافق وضع العرب وضع غيرهم مثل الصابون والتنور(59).

موقف ونتيجة من قضية المعرب

ما يزيد من صعوبة البت في أمر المعرب والدخيل في العربية كونها قديمة مُوغلة في القدم , فهي أقدم بكثير مما يزعم علماء اللغة والأدب , لذلك يكاد يكون الجزم مستحيلاً عند بحثنا في كثير من الألفاظ المشتركة بين العربية وغيرها من لغات العائلة الساميّة بأنَّ هذه اللفظة أو تلك مأخوذة من العبريّة أو الآراميّة أو البابليّة أو الحبشيّة أو غيرها, فلربما العكس هو الصحيح نظراً لقدم العربيّة , ولعدم عثورنا على أي نص مكتوب أو مروي عن اللغة الساميّة الأم التي تفرعت عنها تلك اللغات واللهجات , والعربية تعتبر أقرب بناتها شبهاً بها لما تفضي به نتائج علم اللغة المقارن(60).لذلك لا يسعنا – هنا– الّا أن ننبه على ما حدث في

كتابات العلماء من مبالغات في إلحاق ألفاظ عربية أصيلة بمصادر ساميّة أخرى, وهو أمر لم ينج من العلماء قديماً, وهم على مذهبين على ما ذكرنا .

أولهما: ينكر وجود القرآن الكريم , والآخر يقول بوجوده, فالمنكر وجود لغة غير لغة العرب في القرآن الكريم يرى (ليس من ألسنة الأمم أوسع من لسان العرب والقرآن ليس فيه لغة إلا لغة العرب وربما وافقت اللغة اللغات وأما الأصل والجنس فعربي لا يخالطه شيء)(61). وهذا المذهب يعتمد على ما جاء في القرآن الكريم في ثلاث عشرة آية تؤكد أنّه نزل بلسان عربي مبين وقد مر ذكر ذلك.

أما المذهب الثاني فهو يذهب إلى وجود المُعرب كما رُوِي في أصل الفاظ (الطور) بأنَّها جبل بالسريانية , والقسط والقسطاس , العدل بالروميّة , أو أنَّ هذه الألفاظ تواردت في اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة والنبط بلفظ واحد(62).

وحكى ابن فارس عن أبي عبيد القاسم بن سلّام : إنَّه حكى الخلاف ونسب القول بوقوعه إلى الفقهاء , والمنع إلى أهل العربية ثم قال أبو عبيد : والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً , وذلك أنَّ هذه الأحرف أصولها أعجميّة كما قال الفقهاء : إنّها سقطت إلى العرب فعرَّبتها بألسنتها وحوَّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن , وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب (63).

كان العلماء يشعرون بوجود ألفاظ معربة , لكنها تختلف تفسيراتهم في نسبتها , فكلام ابن عطية ينم عن وعي بذلك في حديثه عما كان من أثر احتكاك العرب بالأمم الأخرى وأثر ذلك في اللغة , وكان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم مخالطة بسائر الألسن بتجارات وبرحلتي قريش وبسفر مسافرين كسفر أبي عمرو إلى الشام ... وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة وكسفر الأعشى إلى الحيرة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة , فعلقت العرب بهذه كله ألفاظاً أعجميّة غيرت بعضها بالنقص من حروفها , وجرت في تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح , ووضع بها البيان . فإن جهلها العربي فجهله الصريح بما في لغة غيره , وكما لم يعرف ابن عباس معنى (فاطر)

فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنَّها في الأصل أعجمية .لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه (64).

أكبر الظن أن كل هذا الاضطراب في معرفة المعرب ,إثباته مرة , وإنكاره مرة أخرى , سببه اعتقاد جمهور العلماء أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش (65), فما خالف أو جاء بما ليس في لغة قريش فهو من غير لغة العرب , والقرآن الكريم صرّح بنزوله بلسان عربي في أكثر من آية كما ذكرت , فكان الاعتماد في نسبته على روايات من لم تكن له معرفة بالعربية القديمة وفروعها , ودليل ذلك أن ابن عباس وعمر بن الخطاب , وهما قريشان التبست دلالة كلمات عليهما في القرآن(66).

إنَّ عربية القرآن هي العربية المشتركة ازدهرت ونمت قبل نزوله , بعد مرورها بمراحل من التطور وتداخل اللهجات وتوحدها أو تقاربها , لذا تميزها القرآن الكريم ونزل بها ليفهمه جميع الناس في شتى القبائل العربية (67).

ليس علينا أن نأخذ بكل ما ورد من روايات في ألفاظ القرآن الكريم ونسبتها إلى اللغات إنما يجب أن نعمّق البحث عن الحقيقة , فالأوائل ذهبوا مذهباً فيما يعرفونه , وقد ظهرت علوم حديثة يمكنها أن توصلنا نتائجها إلى أقرب تصور لغوي , فالأوائل ما كان لديهم معرفة باللغات التي تفرعت وتطورت عن العربية الأم ما يسمى في علم اللغات ب(العائلة اللغوية) ووصفت بالساميّة إلا ما ندر , لكن تصورات بعضهم يحوم حول حقيقة ذلك. كما ذكرت عند ابن عطية , فكلمات الصراط والهيكل والديباج والاستبرق والقلم ... عدت من الدخيل (68), وحينما نعود إلى المصادر القديمة نجد الاضطراب في النسب والروايات غير المعتمدة على العلم اللغوي باللغات نجد نسبة بعضها إلى القبطية وأخرى إلى التركيّة وأخرى إلى الزنجيّة أو البربريّة(69).

وعند التفتيش والتنقير مستعينين بالدراسات اللغوية تكون كل هذه المنسوبات فروع إلى أصل لغوي واحد ما عدا التركية والروميّة , وهذه لها تعليل علمي لغوي لدى تراثنا اللغوي الدخيل(70).

فالذي يزيد من صعوبة البت في أمر المعرب والدخيل في لغتنا هو كونها قديمة موغلة في القدم كما ذكرنا سابقاً , لذا يكون من المستحيل الجزم في بحث كثير من الألفاظ المشتركة بين العربية وغيرها من لغات العائلة الساميّة بأنَّ هذه اللفظة أو تلك مأخوذة من العبريّة أو الآرامية أو الحبشية ... أو غيرها إذ قد يكون العكس هو الصحيح لقدم لغة العرب أو لعدم عثورنا على نص مكتوب عن اللغة الأم التي تفرعت عنها كل تلك اللغات , واللغة العربية تعتبر بناتها شبهاً بها .

يجب علينا إذن أن ننتبه إلى ما جاء من مبالغات في كتابات العلماء في إلحاق ألفاظ عربية أصيلة بمصادر سامية أخرى أو غيرها , وهو أمر وقع فيه علماء محدثون من عرب ومستشرقين كالأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه (غرائب اللغة العربية) بالرغم من حذره الشديد في ذلك إذ يقول في مقدمة الباب من كتابه : (من الواضح للخبراء أن معالجة هذا الموضوع شديد الوعورة لدى العرب ومن ورثوا لغتهم في العصور الأخيرة لم يدرسوا أصل الكلمات الدخيلة , ولم تدرج فيها الجداول الآتية سوى ما أيقنا مصدره المباشر أو رجحنا حقيقته بل أضفنا إليها ألفاظاً عديدة مما اكتشفناه)(71).

هذا كلام مقبول , فالعربية ما زالت ينقصها المعجم التاريخي الذي بدأ العمل به سنة 1947م,مجمع اللغة العربية في القاهرة ثم انقطع بوفاة المستشرق فيشر (72) مع الأسف , فما ذكره الأب رفائيل نخلة مقبول ولكن ينبغي أن نستعمل الطريقة العلمية المثلى في ذكر الألفاظ المشتركة بين اللغات السامية من دون القول بأنَّ العربية التي أخذت إلا عندما يثبت الانتقال إليها بما لا شك فيه من الظواهر الصوتية والصرفيّة ؛ لأنَّ العربية احتفظت بأكثر وأعرق خصائص السامية الأم(73).

إنَّ معرفة لغوينا باللغات واللهجات القديمة (الساميّة) كانت ناقصة محدودة ما سبب نقصاً في المعجمات العربية , فما كان معروفاً من هذه اللغات اقتصر على العبرانية والارامية والحبشية , ولم تكن تلك اللغات الأقدم منها كالبابلية والآشورية (الأكدية) والكنعانية قد كشفت عنها النقاب عما خلفته من مدونات لغوية إلا في القرن التاسع عشر بعد معرفة قراءة الخطوط القديمة , ان عدم معرفة لغوينا هذه الحقيقة أوقعهم في أوهام تأصيلهم لكثير من الألفاظ العربية , فنسبوا مفردات ذات أصل عربي إلى السريانيّة مثلاً بمجرد وجودها في السريانيّة,

مثل كلمة (الله) وقد فاتهم للأسباب التاريخيّة أن مرد هذا التشابه في اللفظ والمعنى ليس إلى اقتباس العربية من السريانيّة أو غيرها من اللغات الساميّة بل هذا التشابه ناشئ من حقيقة كون السريانيّة والعربية تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة , ومثلها مفردات كثيرة (74), وهذه النتيجة التي اختصرها الطبري في قوله :(وهذه الأمثلة المنسوبة إلى سائر اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد)(75).

هوامش البحث

1- ينظر : معالم الفكر الأصولي الجديد , مُحسن الأراكي : 11- 12.
2- أصول الفوائد الغرويّة , محمد باقر القمي: 36.
3- شرح المفصل, ابن يعيش: 10/1.
4- دراسات أصولية : 78.
5- الإبهاج في شرح المنهاج , ابن السُبكي :11/1.
6- الكتاب: 303/4.
7- قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدّخيل, المُحبي : 105/1.
8- لسان العرب : مادة (عرب) 588/1.
9- تاج اللغة وصحاح العربية , الجوهري: مادة (عرب) 108/1.
10- المُعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المُعجم , الجواليقي: 51.
11- شفاء الغليل, الخفاجي :44.
12- المُزهر , السيوطي: 341/1.
13- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم , التهانوي : 944/3.
14- رسالة في التعريب , كمال باشا : 23.
15- شرح جمع الجوامع , جلال الدين المحلي : 326/1.
16- ينظر : حاشية التفتازاني : 171/1, وتقريرات الشربيني على شرح جمع الجوامع : 327/1.
17- ينظر: شرح جمع الجوامع , جلال الدين المحلي 1/ 327.

18– ينظر: المصدر نفسه: 1/ 327.

19– ينظر: حاشية العطار على شرح جمع الجوامع : 1/ 427.

20– البحر المحيط في أصول الفقه , بدر الدين الزركشي: 2/ 170.

21– شرح مختصر المنتهى الأصولي : 1/ 609.

22– المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل , عبد القادر بن بدران : 1/ 197.

23– الإتقان في علوم القرآن, جلال الدين السيوطي : 393/1.

24– الرسالة , للشافعي : 41–42.

25– ينظر : المُعرَّب , الجواليقي : 6.

26– جامع البيان في تفسير آي القرآن , الطبري : 805/1.

27– ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه : 2/ 173.

28– ينظر: المستصفى في علم الأصول, الغزّالي : 105/1, والبحر المحيط في أصول الفقه : 2/ 170 .

29– ينظر: الإحكام في أصول الأحكام, الآمدي : 50/1,وشرح المختصر, الاصفهاني :170/1,و البحر المحيط في أصول الفقه :2/ 170.

30– ينظر: التبيان في تفسير القرآن , الطوسي: 4/1.

31– المستصفى في علم الأصول: 1/ 106.

32– ينظر: شرح المختصر, الأصفهاني: 170/1, ونهاية السؤل :2/ 155, وإرشاد الفحول, الشوكاني:32.

33– ينظر: قصد السبيل فيما يتعلق في اللغة العربية من الدخيل: 170/1.

34– ينظر: مباني الأصول, محمد باقر السيستاني : 599/2.

35– ينظر: تفسير الرازي: 5/ 350.

36– ينظر : الإتقان في علوم القرآن : 1/ 395.

37– التبيان في تفسير القرآن: 1/ 275.

38– تفسير الطبري 8/1, وينظر: الإتقان في علوم القرآن:105/2.

39– ينظر: تفسير الطبري: 5/1–8.

40– البحر المحيط في أصول الفقه : 1/ 449.

41- ينظر: إرشاد الفحول :91/1.
42- الأضداد, الانباري: 38.
43- شرح العضد : 53.
44- الرسالة الشافعي: 114.
45- المُسودة, ابن تيمية : 1/ 155.
46- ينظر: قواطع الأدلة في أصول الفقه : 1/ 255.
47- مُنية اللبيب في شرح التهذيب , ضياء الدين الأعرج: 211/1.
48- ينظر: شرح جمع الجوامع , المحلي: 306/1.وشرح المختصر:170/1.
49- شرح المختصر, الأصفهاني: 1/ 170.
50- الإبهاج في شرح المنهاج, ابن السبكي: 1/ 281.
51- ينظر: علل الشرائع:88.
52- ينظر: المصدر نفسه:546.
53- ينظر: أمالي السهيلي, لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الأندلسي: 19-20.
54- ينظر: الإتقان في علوم القرآن : 3/ 394.
55- ينظر: المصدر نفسه: 394/3.
56- ينظر: المصدر نفسه: 393/3.
57- ينظر: مباني الأصول: محمد باقر السيستاني:2/ 606.
58- شرح جمع الجوامع : 1/ 306, وشرح المختصر: 1/ 170.
59- ينظر: نهاية السؤل: 2/ 156.
60- ينظر : كلام العرب , د. حسن ظاظا :65-66.
61- كتاب اللغات رواية ابن حسنون :16.
62- سورة النحل:103, سورة يوسف 3, سورة الرعد 37, سورة الشعراء:195,سورة الزخرف 3, ينظر : هل في القرآن أعجمي ,د. علي خشيم5, في التفسير اللغوي ,د. زهير غازي زاهد:27.
63- ينظر : البرهان في علوم القرآن :311/1, والإتقان في علوم القرآن :288/1.
64- البرهان في علوم القرآن:362/1.

65- تفسير ابن عطية:277/2,وينظر البرهان في علوم القرآن:361/1_ 362.

66- البرهان في علوم القرآن :277/1.

67- ينظر : البرهان في علوم القرآن : 1/ 371, والإتقان في علوم القرآن : 245/1, ومن تراثنا اللغوي , طه باقر: 7.

68- ينظر :فصول في فقه العربية, د. رمضان عبد التواب :79, وفي التفسير اللغوي ,د. زهير غازي زاهد22–25.

69- ينظر كلام العرب :د. حسن ظاظا :59, ومن تراثنا اللغوي , د. طه باقر :7.

70- ينظر المتوكلي , السيوطي 149,153,155,157.

71- ينظر :من تراثنا اللغوي القديم , د. طه باقر :8.

72- غرائب اللغةالعربية:169.

73- أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة, د. محمد رشاد حمزاوي :509–511.

74- ينظر : كلام العرب , حسن ظاظا :67.

75- ينظر :من تراثنا اللغوي : طه باقر :7

76- البرهان في علوم القرآن: 361/1.